جيش الشرق في سوريا
ممارساته وردة الفعل الوطنيّة

كاميليا شكيب أبو جبل[1]

ملخص

ينكشف التّاريخ الاستعماريّ الفرنسيّ لسوريا عند دراسة أدواته الّتي استخدمها للسّيطرة، والاحتلال، فكان جيش الشّرق الفرنسيّ هو الأداة العسكريّة الّتي تغلغلت بشؤون سوريا كافّة، وربطت بهِ كلّ المصالح الفرنسيّة، إذ لم تتحقّق الأهداف الفرنسيّة في سورية إلّا بالقمع في ظلّ الرّفض السّوريّ الوطنيّ لوجود فرنسا منذ اللّحظة الأولى للاحتلال، وحتّى الاستقلال، ويدرس هذا البحث العلاقة بين الجيش، ومفوّضو فرنسا في سورية، إذ كان معظم قادته هم المفوّضون السّاميون، كذلك يجيب على السّؤال الجوهريّ للبحث: كيف أفضت ممارسات جيش الشّرق إلى ردود فعل وطنيّة كبرى؟ فالجيش الفرنسي لم يكن أداة عسكريّة فحسب، بل كانت من مهامه الفصل بين أبناء الوطن الواحد، وتجنيد الأقلّيّات، والدّفع باتّجاه دوام التّفرقة بين السّوريّين، حتّى أنّ عناصره أهانوا الأديان، وفرضوا على الشّعب نوعًا من العبوديّة، حتّى عندما حُلّ الجيش كانت ممارساته السّلبيّة راسخة في سلوك كلّ من خدم فيه.

مقدّمة

احتلّت فرنسا سورية تحت مسمّى الانتداب، وكانت القوّة الضّاربة في هذا الاحتلال هو جيش الشّرق الفرنسيّ الّذي مارس كلّ الأساليب القتاليّة لاحتلال البلد، وفرض السّلطة الفرنسيّة عليه تحت مسمّى التّحضّر، والتّمدّن، ومساعدة الشّعوب، إنّ تلك الأداة

١. أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر في كلية الآداب - جامعة دمشق منذ عام ١٩٩٩م.

العسكريّة كانت تتكوّن من مجموعة من الرّوابط المتشابكة فيما بينها بدءًا بعناصر ذلك الجيش، ووحداته، والمهام الّتي حُدّدت له، وكذلك ترابطه، وعلاقته بالمحيط السّوري الّذي وُجد فيه، إضافة إلى مواجهته، وقمعه أيّ تحرّك وطني حتّى وإن كان مدنيّ وسلميّ.

إشكاليّة الدّراسة: تكمن إشكاليّة البحث في الإجابة على السّؤال الجوهريّ: ما دور جيش الشّرق في تشكيل ردّة الفعل الوطنيّة، وسعي الشّعب السّوري إلى التّحرّر؟ ولمعالجة السّؤال المحوريّ لا بدّ من معالجة مجموعة من الأسئلة الفرعيّة وهي:

١. من هم قادة جيش الشّرق الفرنسيّ في سورية؟
٢. كيف أسهمت سياسة وتصرّفات جيش الشّرق في رغبة السّوريّين في التّحرّر؟
٣. ما عناصر الجيش وما تأثيرها في الدّاخل السّوري؟
٤. كيف تحول الجيش إلى أداة للتّدخّل في الشّؤون المدنيّة السّوريّة وقمع الشّعب السّوري؟

سيستخدم في البحث المنهج التّاريخيّ، والوصفيّ، والتّحليليّ لاستقراء الأحداث التّاريخيّة بناء على المعطيات المتوافرة من وثائق غير منشورة، ومصادر متنوّعة، منها ما أرّخ الأحداث، ومنها ما كانت مذكّرات شخصيّة تداخلت مع الأحداث، ممّا ثبت في قائمة المصادر والمراجع.

الدّراسات السّابقة: لا يوجد دراسة متكاملة عن جيش الشّرق الفرنسيّ، إذ ركّزت الدّراسات السّابقة على الثّورات الوطنيّة، وكذلك على القوى العسكريّة الوطنيّة الّتي شكّلت جيشيّ لبنان وسورية، ومن خلالها استطعنا الوصول لمعلومات قيّمة عن جيش الشّرق.

أوّلًا: قوّات جيش الشّرق في سوريا (القادة والعناصر والمهام)

١. القادة

مارس المفوّض السّامي السّيادة الكاملة على الأراضي الّتي تحتلّها فرنسا[١]، وبعد أن كان المندوب السّامي هو قائد الجيش بالمطلق، صار تعيين ثلاث شخصيّات فقط في منصب قادة لجيش الشّرق الفرنسي، أحدهم لم يستمرّ سوى مدّة بسيطة وهو هملان، والآخر بقي قرابة أربع سنوات وهو هونتزيجر، والثّالث بقي عامًا تقريبًا وهو كايو، وفي زمنه صدر قرار من الحكومة الفرنسيّة، وجاء فيه أنّه يحقّ للمفوّض السّامي استخدام الجيش لإرساء الأمن، والاستقرار في المناطق المنتدبة[٢].

اختار الفرنسيّون حكم سورية بالقوّة، والعسكرة؛ ليلبّوا مصالحهم الاقتصاديّة في السّيطرة على ثرواتها سريعًا[٣]، وفي الواقع فإنّ الخطوة الّتي اتّبعتها فرنسا باستعجال احتلال سورية بالقوّة العسكريّة كانت تنفيذًا لخططهم بجعل الجيش ركيزة الحكم، وتطبيق الاحتلال العسكريّ بالقوّة لفرض إرادة فرنسا، وتجاهل إرادة السّوريّين[٤]، وإنّ سلطة الجيش كانت كاملة في يد المفوّضين السّاميّين منذ تأسيسه وحتى عام ١٩٢٥م، وتعيين دي جوفنيل وهو مدنيّ مفوّضًا فرنسيًّا، إلّا أنّ صلاحيّات المفوّض السّامي كانت شاملة، لذلك لم يظهر دور لقادة الجيش، في حال عيّن قادة له! والأرجح أنّ المندوب كان هو قائد الجيش ككلّ، بينما قائد الجيش الأعلى في سورية فقط كان منصبًا منفصلاً، ولكنّه يخضع لسلطة المندوب السّامي، إذ نجد مثلاً أنّ القائد العسكريّ لمنطقة دمشق وهو الجنرال أندريا هو من قاد جيش الشّرق في زحفه على جبل حوران عام ١٩٢٦م[٥]،

---

١. ربّاط، إدمون، تطوّر سوريا السياسي في ظل الانتداب، ص١٢٣.

2- Priestland and Seale, Records of Syria (1918- 1973), volume 6: (1940- 1942), P.529.

٣. قرقوط، ذوقان، تطور الحركة الوطنيّة في سورية (١٩٢٠-١٩٣٩م)، ص٤٢-٤٣.

٤. اسماعيل، حكمت علي، نظام الانتداب الفرنسي على سورية (١٩٢٠-١٩٢٨م) بحث في تاريخ سورية الحديث من خلال الوثائق، ص٨١.

٥. العياشي، غالب، الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الافرنسي في سوريا، ص٢٩٩.

إذ لنتمكن من دراسة قادة الجيش حتّى بعد حلّه، وقيامه بمجزرة البرلمان عام ١٩٤٥م، علينا دراسة المفوّضين، والمندوبين الفرنسيّين الّذين أخذوا كامل الصّلاحيّات العسكريّة في سورية حتّى الاستقلال.

أ. جورج بيكو

وهو أوّل قائد لجيش الشّرق، وفي زمانه بدأت فرنسا باحتلال سوريا بدءًا من السّاحل وكيليكيا[١]، وكذلك هو أوّل مفوّض سامي لفرنسا في سورية، ولبنان، وعيّن عام ١٩١٧م، ودخل برفقة الجيش الفرنسي إلى لبنان في ٧ تشرين الأوّل ٢٠١٨م، وتسلّمت القوّات المواقع من القوّات البريطانيّة[٢]، وبذلك انتهى دور بيكو بوصفه قائدًا للجيش المؤسَّس حديثًا[٣].

ب. الجنرال هملان

تسلّم قيادة جيش الشّرق في ٢٨ تشرين الثّاني عام ١٩١٨م بعد إنزال القوّات الفرنسيّة على السّواحل اللّبنانيّة، واحتلّت لبنان، في حين كان الجنرال الإنكليزي اللّنبي هو قائد جيوش الحلفاء جميعها[٤].

ت. الجنرال غورو

القائد العام لجيش الشّرق وهو المفوّض السّامي لفرنسا[٥]، وكانت تصدر القرارات الرّسميّة بتسميته بالمعتمد السّامي للجمهوريّة الفرنساويّة في سوريا، وكيليكيا، وقائد جيش الشّرق العام[٦]، وبقي غورو في قيادة الجيش حتّى نيسان ١٩٢٣م[٧].

---

١. خباز، حنا، فرنسا وسوريا، ج١، مبادئ السياسة الفرنسيّة في الشرق، ص٨٢.

٢. سويد، ياسين، الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، ص١١.

٣. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص د.

الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص٢٥.

٤. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٢٥.

٥. الحكيم، يوسف، سورية والانتداب الفرنسي، ذكريات ١٧، ص٤٢.

٦. العملة السورية، جريدة العاصمة، ص١.

٧. الأرمنازي، نجيب، محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، ص١٧.

ث. الجنرال ويغان

في مطلع شهر نيسان عام ١٩٢٣م أنهت فرنسا مهمّة غورو في سوريا، وعيّنت ويغان بدلاً منه، وهو أحد القادة العسكريّين، ووصل إلى بيروت في ٩ آيار ١٩٢٣م[١].

ج. الجنرال سراي

وصل إلى بيروت في بداية عام ١٩٢٥م[٢] معيّنًا قائدًا لجيش الشّرق[٣]، وكان مستبدًّا برأيه، إذ أعطى الجيش كلّ الصّلاحيات لقمع أيّ تمرّد في سورية، وتفتيش المنازل، ومصادرة السّلاح، ونفي السّوريّين الوطنيّين، واعتقال، وسجن القادة منهم، وكانت ممارساته العسكريّة سببًا في اندلاع الثّورة السّورية الكبرى[٤].

ح. الجنرال غاملين

عيّن بدلاً من سراي على إثر فشل الأخير في قمع الثّورة السّوريّة الكبرى[٥]، ووصل في ١٣ أيلول ١٩٢٥م وصل إلى سورية[٦]، وقاد بنفسه الحملة العسكريّة إلى جبل حوران لقمع الثّورة فيه[٧].

خ. دي جوفنيل

عيّن خلفًا لغاملين عام ١٩٢٥م[٨]، وهو ذو خلفيّة مدنيّة، وليست عسكريّة،[٩] وكان

---

١. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص١٠١.

٢. م.ن، ص١٠٦.

٣. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص١٧.

٤. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص١٤.

٥. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص١١٧.

٦. المحايري، فهمي، مذكرات فهمي المحايري عن الثورة السورية والأوضاع العلمية والاجتماعية والسياسية السورية والعالم تحت الاحتلال الفرنسي، ص١٠٨.

٧. م.ن ، ص١١٣.

٨. فرنسا وسوريا، ج١، م.س، ص٨٢.

٩. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص١٧.

عضوًا في مجلس الشّيوخ الفرنسي، وأحد ممثّلي فرنسا في عصبة الأمم، وهو خطيب متمكّن، ومُتحدّث، كذلك كان له كتابات سياسيّة جعلته في مصافي كبار الكتاب السّياسيّين إذ كان رئيس تحرير جريدة لوماتان[١]، ولكن على الرّغم من أنّه سياسيّ بارع، إلاّ أنّه لم يتمكّن من إخماد الثّورة بل على العكس زاد من حدّتها[٢].

د. هنري بونسو

وهو دبلوماسي فرنسي محترف كان عمره ٤٩ عند تعيينه مفوضًا، وكان يشغل آنذاك منصب مدير القسم الإفريقي، والشّرقي في الخارجيّة الفرنسيّة[٣]، وعرف عنه الصمت، والهدوء، وبقي مفوّضًا لمدّة زمنيّة أطول من أيّ فرنسي آخر في هذا المنصب، عيّن في ١٤ آب، ووصل سوريّة في ١١ تشرين الأوّل ١٩٢٦م، وكان يقضي ستّة أشهر في سورية ثمّ يعود إلى فرنسا ليعالج المشكلات مع وزارة الخارجيّة، وكان شديد الحذر، ولا يستعجل في اتّخاذ أيّ قرار، وعند زيارته إلى فرنسا للاستجمام بعد مرض ألمّ به أنهت فرنسا تكليفه، وعيّنته مقيمًا عامًّا في مراكش[٤].

ذ. داميان دي مارتيل

كان سفير فرنسا في الصّين، وعيّن مفوّضًا فرنسيًّا على سورية ولبنان في تموز ١٩٣٣م[٥]، وهو من ذوي الحزم، والجرأة على عكس سلفه، ووصل سورية في ذروة الخلاف على المعاهدة السّوريّة الفرنسيّة، وحاول حلّها، وخرج بمعاهدة صداقة، وتعاون،

---

١. لونغريغ، ستيفن ها مسلي، تاريخ سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي، ص٢٠٥؛ محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص٤١.

٢. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص١٥.

٣. تاريخ سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي، م.س، ص٢٢٥.

٤. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص٥٦، ٧٨.

٥. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص٢٣٧.

ووقّعها، وأرسلها لفرنسا[١]، وبعد خمسة أعوام غادر البلاد عائدًا إلى فرنسا عام ١٩٣٨ [٢].

ر. هونتزيجر

عيّن لأوّل مرّة حاكمًا عسكريًّا لسورية عام ١٩٣٦م بسبب حال الغليان الشّعبيّ، والاحتقان من مماطلة دي مارتيل في تنفيذ الاتفاقيّة بين فرنسا وسورية[٣]، وجاء دوره لتهدئة الأجواء الحربيّة ريثما تماطل فرنسا في توقيع الاتّفاقيّة الّتي لم ترد أن توقعها[٤]، واستمرّ في منصبه حتّى عام ١٩٣٩م وفقًا للمراسلات الّتي ظهرت بينه وبين البستاني[٥].

ز. الجنرال كايو

عيّن قائدًا لجيش الشّرق عام ١٩٣٩م[٦]، ولكنّه لم يبقَ في المنصب بسبب بدء الحرب العالميّة الثّانية، والتّبدّلات الطّارئة في الحكومة الفرنسيّة[٧].

س. غبريل بيو

عيّن مفوضًا عامًّا، ووصل إلى بيروت في ٧ كانون الثّاني عام ١٩٣٩م[٨]، وهو الممثّل السّابق لفرنسا في النّمسا، وانتهت مهمّته، وعاد لبلاده بعد إلحاق النّمسا بألمانيا، وكان طموحًا، انتظر لثمانية أشهر لتعينه فرنسا في منصب ما، فجاء تعيينه في أخطر المناصب الفرنسيّة خارجها، وجاء تعيينه في معضلة إقناع البرلمان الفرنسيّ الموافقة على المعاهدة بين سورية وفرنسا، ولكنّه قضى عليها برمّتها، وأنهى جزءًا هامًّا من الحركة الوطنيّة المتمثّلة

١. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص٧٨-٧٩.

٢. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص٢٧٧.

٣. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص١٩-٢٠.

٤. أبو صالح، عبد القدوس، مذكرات الدكتور معروف الدواليبي، ص٢٤.

٥. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص د.

٦. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص١٤٥.

٧. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص١٢١.

8. Priestland and Seale, Jane and Patrick, Records of Syria (1918- 1973), volume 6: (1937- 1939), Archive Editions, 2005, P.508.

بسيطرة بالكتلة الوطنيّة على القرار السّوري الوطنيّ، وتوجيهه ضدّ الاحتلال[١]، واستخدم بيو جيش الشّرق لقمع التّحرّكات الوطنيّة[٢]، ولكنّه أقيل في ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩٤٠م على إثر سيطرة ألمانيا على فرنسا، وإعلان حكومة فيشي قراراتها الجديدة[٣].

ش. داتنز

وصل سورية في كانون الأوّل عام ١٩٤٠ معيّنًا بوصفه مفوّضًا ساميًا، وقائدًا عامًّا على سورية من حكومة فيشي[٤]، وقد نفّذ دانتز أوامر حكومة فيشي الفرنسيّة بوضع المطارات، والقواعد العسكريّة السّوريّة، واللّبنانيّة تحت تصرّف الطّيران الألمانيّ الّتي كانت ستعبر من سورية إلى العراق، ولكن الحلفاء هاجموا الألمان في سورية في ٨ حزيران ١٩٤١م، وخلال شهر واحد انتهى دور دانتز في سورية، وكذلك دور حكومة فيشي[٥].

ص. الجنرال كاترو

وقد عيّنه الجنرال ديغول مندوبًا عامًّا على سورية بطلب بريطانيّ من أجل إعادتها للسّيطرة الفرنسيّة بدعم القوّات البريطانيّة عام ١٩٤١م، إذ رفضت بريطانيا تسمية، وتوصيف هذا المنصب أنّه مفوّضًا ساميًّا، وأعلن في ٢٧ أيلول ١٩٤١م أنّ سورية تتمتّع بما تتمتّع به الدّول المستقلّة، ولا تخضع إلى قيود سوى ما يتعلّق بحال الحرب المستمرّة، وأمنها، وأمن، وسلامة جيوش الحلفاء[٦]، وفي ١١ آب ١٩٤١ أعلن القائد الأعلى لجيش الشّرق الفرنسيّ كاترو حلّ جيش الشّرق الفرنسيّ، مع بقاء القوّات الفرنسيّة بأمرته، وعاملة في سورية ولبنان[٧].

---

١. الأرمنازي، محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، ص١١٢، ١٢٠.

٢. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص٢٣.

٣. الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص٣١٥.

٤. الأرمنازي، محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، ص١٢١.

٥. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص٢٥.

٦. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص١٢٦، ١٣٤.

٧. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص١٦٢.

ض. جان هيلو

نقل كاترو إلى الجزائر، وعيّن بدلاً منه هيلو في ٣ حزيران ١٩٤٣م مندوبًا عامًّا، وكانت القوّات المتبقّية من جيش الشّرق لا تزال فاعلة في سورية، وفي تلك المرحلة أعلن رئيس سورية شكري القوتلي انتهاء الانتداب على سورية، وبفكّ الارتباط بفرنسا فأعادت فرنسا إيفاد كاترو لمعالجة الموقف، وبدأ كاترو بالاتّفاق مع الحكومة السّورية لنقل الصّلاحيات إليها[١]، وفقًا لتعليمات الحكومة البريطانيّة[٢].

ط. ايف شاتينو

عين بدلاً من هيلو بسبب النّقمة العارمة على تصرّفاته في لبنان وسورية، وتسلّم منصب المندوب العامّ بالوكالة عام ١٩٤٣م، وبقي فيه حتذى عام ١٩٤٤م[٣]، وخلال مدّة حكمه تزايد النّشاط البريطاني في بعض المناطق السّوريّة، ولا سيّما في الجزيرة السّوريّة[٤].

ظ. الجنرال بينه

تسلّم منصب المندوب العامّ بين عامي (١٩٤٤-١٩٤٦م)، وهو من ارتكب مجزرة البرلمان عام ١٩٤٥م[٥]، إذ لم تغيّر فرنسا سياستها العسكريّة في التّعامل مع سورية على الرّغم من الادّعاء بحلّ الجيش، وأكبر دليل على هذا أنّها عيّنت جنرال عسكري مندوبًا لها.

نجد من خلال دراسة قادة الجيش الفرنسي أنّ القرار الفرنسي بحكم سوريّة عسكريًّا كان منذ بداية التّخطيط لاحتلالها، وحتّى الجلاء عنها، ولا يختلف تعيين مفوّض مدنيّ

١. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص٢٧.
٢. هواش، تكوين جمهورية - سورية والانتداب، ص٣٤١.
٣. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص٣٧-٣٨.
٤. تكوين جمهورية - سورية والانتداب، م.س، ص٣٤١.
٥. الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، م.س، ص٣٨.

عن آخر عسكريّ في ظلّ دوام فاعليّة القوّات العسكريّة في السّيطرة على البلاد، وإدارتها في مختلف النّواحيّ، وأنّ جيش الشّرق الفرنسيّ الّذي حُلّ عام ١٩٤١م، لم يُحلّ إلاّ على الورق، وبقي متأهّبًا لعقاب السّوريّين، وقمعهم، وأذيّتهم، وعلى العكس بدلاً من انسحابه، وتسليم القوّات السّوريّة الوطنيّة الأمن، والشّؤون العسكريّة ازداد الفرنسيّون إصرارًا على دوام احتلال هذا الجيش لسوريّة.

٢. العناصر

على إثر خروج فرنسا من الحرب العالميّة الأولى، وهي في وضع عسكريّ يسيطر فيه الحزب العسكريّ على الحكم، جاء تشكيل جيش الشّرق وفق نظريّة بعض الفرنسيّين بوجوب مكافأة الجنود الّذين أبلوا بلاءً حسنًا في الحرب[١]، والاستمرار في خلق الأمجاد العسكريّة لفرنسا للتّغطية على خساراتها السّابقة، وبسبب النّقص الشّديد في أعداد القوّات الفرنسيّة، فقد تشكّل الجيش من عدّة عناصر كان لها دور فاعل في قمع الشّعب السّوري، وكانت قيادتها من الفرنسيّين، فعند دخول جيش الشّرق لسورية في ٢٤ تموز ١٩٢٠م، كان بين عناصره جنود أفارقة، وجزائريّون، ومراكشيّون، وسنغاليّون، وسوريّون، وفرنسيّون[٢]، وكانوا يشكّلون معظم الجيش الفرنسيّ[٣].

أ. الأفارقة

اعتمدت فرنسا على الأفارقة، وشكّلت منهم فيالق عديدة ضمن جيش الشّرق الفرنسيّ[٤]، وشاركوا في مختلف المعارك على امتداد سورية بأعداد كبيرة، وفيالق عدّة[٥]، فقد كان من ضمن جيش الشّرق الفرنسيّ فيلق من الرّماة الأفارقة، وخاضت سريّة من

١. مسعد، بولس، لبنان وسوريا قبل الانداب وبعده، ج١، ص٧٣.

٢. نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص١٧٦.

٣.تكوّن جمهورية - سورية والانتداب، م.س، ص٤٩.

٤. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٤٦.

٥. الريس، منير، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي - الثورة السورية الكبرى، ص٢٤٤-٢٤٥؛ الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٧٤.

الرّشاشات منها حروب في الشّمال السّوري عام ١٩٢٠م[١].

ب. المغاربة

شكّل المراكشيون فرقَ خيّالة في جيش الشّرق، وهم من العرب المتمرّسين في الفروسيّة، والأشدّاء في الحروب، وقاتلوا ضمن الجيش الفرنسيّ في مختلف مناطق الثّورة السّوريّة عام ١٩٢٥م[٢]، وسمّوا بالصّبّاحيّين، وشكّلت فرنسا منهم عدّة فيالق[٣].

ت. الجزائريّين

جنّدتهم فرنسا منذ بدء عمليّات الجيش الفرنسيّ في سوريّة، إذ شاركوا في حروب عام ١٩١٩م في الشّمال السّوريّ، وكانوا كتيبتين من الرّماة[٤]، واعتمدت فرنسا عليهم في سلاح الرّشاشات، ووضعتهم في الصّفوف الأماميّة في المعارك[٥].

ث. السّنغاليّون

وأكثرهم من المسلمين، ووصفهم السّوريّون بالمرتزقة الّذين يقاتلون لصالح فرنسا، لقمع الحركات الوطنيّة في سورية[٦]، وكان انتشار السّنغاليين على امتداد مساحة سوريّة ضمن جيش الشّرق كبير، واعتمدت عليهم فرنسا في قمع الرّوح الوطنيّة، وملاحقة الوطنيّين[٧]، وذلك منذ وصول جيشها إلى سورية، إذ كان هناك فيالق منهم[٨].

---

١. قوصوه، فايز، الثورة العربية في الشمال السوري - ثورة إبراهيم هنانو، ص٤٦.

٢. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٦٣، ١٧٠، ٢٦٣.

٣. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٨٤.

٤. م.ن، ص٢٧.

٥. م.ن، ص٤٤-٤٥.

٦. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٧٩-٨٠.

٧. فهد، أنور، أيام في الذاكرة، ص٣٠.

٨. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٧٠.

ج. التّونسيّين

كان ضمن الجيش الزّاحف إلى جبل العرب عام ١٩٢٥م فيلق من الرّماة التّونسيّين من ثلاثة ألوية، وكذلك فيلق خيّالة تونسيّين[١]، وعمومًا كان هناك عدّة فيالق منهم[٢].

ح. الفرنسيّون

وهم عماد جيش الشّرق، وكان عددهم مرتفع في مختلِف القطاعات العسكريّة الحسّاسة، وشكّل الضّبّاط، وصفّ الضّبّاط النّسبة الأعلى[٣].

خ. السّوريّون

يفصل الباحثون بين العناصر السّوريّة الّتي خدمت لصالح الجيش الفرنسيّ، وبين جيش الشّرق الفرنسيّ، وخلال دراستنا هذه وجدنا ألّا فرق بينهما، فكلاهما يعملان تحت إمرة الضّبّاط الفرنسيّين في جيش الشّرق، ويتلقّون تعليماتهم العسكريّة من قيادة الجيش العليا، ويشاركون بالمعارك ضدّ الوطنيّين جنبًا إلى جنب مع بقيّة عناصر القوّات الفرنسيّة وفق اختصاصاتهم، لذلك هم عناصر بهذا الجيش، وهم متطوّعون فيه، وسمّيت هذه العناصر الّتي قاتلت ضدّ السّوريّين بقوّات العملاء[٤]، فقد عمل الفرنسيّون على حشد السّوريّين من الشّراكسة، والعلويّين، والأرمن، والموارنة، والإسماعيليّين للخدمة في جيش الشّرق على أنّهم يخدمون لصالح قضاياهم، إذ دعموا الزّعماء الشجعين الجشعين للمال في مناطق العلويّين لكسبهم وفئات الشّعب المسحوقة للعمل في الجيش بمقابل مادّي[٥]، فقد قاتل الشّراكسة مع الجيش الفرنسي في سورية منذ بدء احتلاله لها، وشاركوا

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٤٤-٢٤٥.
٢. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص١٥٤.
٣. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٨٠.
٤. م.ن، ص٨٨.
٥. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٨٢.

بمعارك عام ١٩١٩م[١]، وشكّل الشّراكسة كتيبة عسكريّة ضمن الجيش الفرنسيّ القادم لجبل العرب عام ١٩٢٥م[٢]، كذلك أستُعين بهم في عمليّات الحراسة، والمراقبة على الطّرق، والسّكك الحديديّة، ولا سيّما على طريق دمشق-بيروت[٣].

كذلك تطوّع عدد كبير من الإسماعيليّين في السّاحل السّوري في جيش الشّرق نتيجة لسياسات فرنسا خلال مجابهتها ثورة الشّيخ صالح العلي من جعل هذه الفئة درعًا بشريًّا للقوّات الفرنسيّة، فكانت مستهدفة من الثّورة لأنّها لم تستطع إخراج الفرنسيّين من مناطقها، وردًّا على مهاجمة العلويّين للفرنسيّين ولهم فتطوّعوا في الجيش الفرنسيّ[٤]، وشارك الأرمن بالتّطوّع في الجيش، وشكّلوا فرقًا فيه، وشاركوا في عام ١٩٢٠م في معارك كيليكيا ضدّ الأتراك كوحدات مختلطة ضمن جيش الشّرق[٥]، وكان في جيش الشّرق فرق من شرائح مختلفة من السّوريّين تقاتل إلى جانبهم برئاسة ضبّاط فرنسيّين، ومعهم أحد الأطبّاء السّوريّين الّذي عمل ترجمان لهم، وهو من المسيحيّين[٦].

بلغ عدد السّوريّين في القوّات السّوريّة الرّديفة ١٨٥ ضابطًا منهم ١٥٧ فرنسيًّا، والعناصر ٦٥٠٠ منهم ٦٤٦ فرنسيًّا، أمّا القوّات المشكّلة عام ١٩٢٥م لقمع الثّورة السّوريّة الكبرى، فقد شكّلتها فرنسا من المهاجرين الجدد من أرمن، وجماعات الشّركس الّذين سبق لهم أن ارتكبوا كثيرًا من الجرائم في القرى السّوريّة[٧].

لم تكن كلّ العناصر السّورية في جيش الشّرق موالية لفرنسا، فعلى سبيل المثال كان الضّابط في الجيش الفرنسي فوزي القاوقجي، ورفاقه صفّ الضّبّاط السّوريّين، وكلّهم من

١. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٢٩.
٢. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٤٥.
٣. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٢١٢.
٤. آل جندي، أدهم، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، ص٣٦-٣٧.
٥. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٥٤.
٦. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٦٣.
٧. تطور سوريا السياسي في ظل الانتداب، م.س، ص١٣٣.

حماة قد خطّطوا للانقضاض على الفرنسيّين[١]، وهو الضّابط السّوري الوحيد، والعربي الوحيد المعيّن في جيش الشّرق ضمن القوّات السّوريّة المختلطة برتبة نقيب[٢].

نجد ممّا سبق أنّ هناك مجموعة من الأسباب الّتي أدّت إلى وجود عناصر أساس في الجيش كالمغاربة، والأفارقة، والسّنغاليّين، فهم عماد القوّة العسكريّة الفرنسيّة، أمّا العناصر السّوريّة فكلّ شريحة لها أسبابها في الخدمة بالجيش، منهم له أسباب طائفيّة غذّتها فرنسا، وأدّت لاستخدامهم في الجيش، ومنها أسباب ماديّة إذ دفعت فرنسا لبعض القادة المحلّيين الجشعين للمال ليقنع الشّبّان بالتّطوّع، ومنها أسباب دينيّة، وتعاطف بعض المسيحيّين مع فرنسا بالرّابطة الدّينيّة، ولكن فرنسا لم تثق بالسّوريّين، وجعلتهم في مراتب عسكريّة متأخّرة عن الفرنسيّين، وكأنّهم عمّال لديهم.

د. المهام

كانت أولى مهام جيش الشّرق احتلال لبنان، وكيليكيا، والسّاحل السّوري، إذ لم تكن قوّاته كافية لاحتلال كامل سورية[٣]، فبدأ بالتّخطيط لاحتلال المواقع، والطّرق الاستراتيجيّة في سورية، وظهر ذلك جليًّا في إنذار غورو إذ طالب بسيطرة الجيش الفرنسيّ على الخطّ الحديديّ من رياق إلى حلب بالإضافة لمحطات ريّاق، وبعلبك، وحمص، وحماه، وطالب غورو بموافقة الحكومة على احتلال الجيش الفرنسي لحلب، وتشكيل إدارة عسكريّة فرنسيّة فيها، أمّا المهمّة الثّانية الّتي نفّذتها الحكومة العربيّة في دمشق فقد كانت في القضاء على القوّات السّوريّة بحلّ الجيش، وإلغاء التّجنيد العسكري بكلّ أشكاله[٤].

كان الجنرال غورو ومنذ وطأت قدمه سورية قد شكّل جيش من القوّات السّورية ممّا توافر من أفراد، وأرسله بمهمّة لدعم القوّات الفرنسيّة في كيليكيا ضدّ ثورة الأتراك، وكان

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٨٧.
٢. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص٢٦.
٣. زرزور، فارس، معارك الحرية في سورية، ص٤٨.
٤. يونس، عبد اللطيف، شكري القوتلي - تاريخ أمة في حياة رجل (١٩٠٨-١٩٥٨م)، ص٤٧-٤٨.

هذا الجيش يعمل تحت مظلّة جيش الشّرق الّذي أصيب بنكسة كبرى على يد الأتراك[١].

ونستطيع تلخيص المهام الّتي قام بها جيش الشّرق إلى مهام واضحة، وهي القضاء على الثّورات، والانتفاضات ضدّ فرنسا، مما سندرسه منفصلاً في هذه الدّراسة، أمّا المهام الصّغيرة لكنّها ذات أثر كبير، وهي الّتي حرّكت الشّعور الوطنيّ السّوريّ بضرورة الإسراع بالخلاص من الاحتلال، وجيش الشّرق؛ فنورد أمثلة على المهام الّتي أنيطت ببعض وحدات جيش الشّرق سواء خلال المعارك، أم في حالات أخرى:

كانت إحدى مهام جيش الشّرق بدبّاباته، ومعدّاته الثّقيلة تأمين الانتخابات الّتي أجرتها فرنسا عام ١٩٢٢م، وقد ثار الأهالي في دمشق، وهاجموا الجيش، ودبّاباته في شوارع دمشق آنذاك[٢].

كانت أبرز مهام وحدات جيش الشّرق تتبّع الثّوّار، والتّعامل مع الجواسيس المحلّيّين للإبلاغ عنهم[٣]، ولا سيّما الزّعماء الوطنيّين المتخوّف منهم، وبثّ التّفرقة بين أبناء الشّعب السّوري، لا بل العمل على معاقبة من يبدي رفضه للسّياسة الفرنسيّة، ولا سيّما في المناطق الّتي يحمل أصحابها السّلاح كجبل العرب[٤].

إحدى مهام القوّات الفرنسيّة خلال ثورة الشّمال كانت تدنيس المقدّسات، ولا سيّما القرآن، وممارسة الإرهاب[٥]، وكانت بعض مهام أفراد الجيش الفرنسي حرق الأماكن الدّينيّة، وفعلت ذلك في مختلف المناطق، ومنها السّويداء[٦]، كذلك عملت قوّات الجيش مُعزّزة بالدبابات على حصار المساجد عند توقّع أيّ حركات وطنيّة، أو مظاهرات[٧].

نهب الآثار السّوريّة: كانت إحدى مهامّ عناصر جيش الشّرق خلال ثورة الشّمال

١. تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، م.س، ص١٣.
٢. محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، م.س، ص٧٠.
٣. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٣١.
٤. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٤٩.
٥. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٤٣.
٦. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٣٣.
٧. مذكرات الدكتور معروف الدواليبي، م.س، ص٢٦.

السّوريّ نهب الآثار السّوريّة بشكل منظّم[١].

الجيش وسيلة لفرض الضّرائب: تفنّن قادة الجيش الفرنسيّ في فرض الضّرائب على السّكّان، ووصل بهم الأمر أن فرضوا ضريبة ١٠ ليرات ذهب لفقدان أحد ضبّاطهم لهرّة في منطقة السّويداء[٢].

عمل الجيش الفرنسيّ خلال سير حملته على قرى جبل حوران أن يدمّر منازل السّكّان، وينهبها، ويعتدي على الرّحمات، والنّساء حتّى للمسيحيّين الّذين استقبلوهم في بعض المناطق بالماء والطّعام، فكانت عمليّات تلويث المياه النّظيفة، وقطعها عن السّكان، وتجريف المزرعات، والاشجار المثمرة هي عمليّات ممنهجة قامت بها وحدات الجيش، وعناصره[٣].

بثّ الفتن الطّائفيّة: كان من مهامّ الجيش في دمشق إشعال الفتنة الطّائفيّة، إذ أمر الجنرال ساراي بإزالة الحراسة عن الحيّين المسيحيّ واليهودي بعد دخول الثّوّار إلى دمشق من جهّة الغوطة، ولكن الثّوّار شكّلوا مجموعات حراسة، وطمأنوا أخوتهم بالوطن أن لا خوف عليهم[٤]، وفي أجزاء أخرى من سورية عملت استخبارات الجيش على بثّ بذور الفتنة بين المسيحيّين، والمسلمين حتّى في الأوساط التّجاريّة، وكذلك في تشجيع الأطفال بالاعتداء على المصلّين وسط حماية عناصر الجيش، على سياسة فرق تسد[٥]، ولم تقتصر التّفرقة الّتي قام بها الجيش الفرنسيّ على المسيحيّين، والمسلمين بل فرّقوا بين الطّوائف الإسلاميّة كما فعلوا عندما تمركزوا في مناطق الإسماعيليّين، وتحصنوا بين منازلهم في مواجهة ثورة صالح العلي ممّا دفع الإسماعيليّين للقتال ضدّ العلويّين للحفاظ على مناطقهم في طرطوس، وكان النّصر حليف الثّوّار في تلك المعركة[٦].

١. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٥٢.

٢. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٥٣.

٣. م.ن، ص٢٤٨ - ٢٤٩.

٤. م.ن، ص٢٨٢.

٥. أيام في الذاكرة، م.س، ص١٦.

٦. تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، م.س، ص٣٤-٣٥.

نستنتج ممّا سبق ذكره عن مهام جيش الشّرق الفرنسيّ أنّه كان منظّمًا بطريقة غير اخلاقيّ؛ة ليؤدّي مهام تجعل فرض السّلطة الفرنسيّة بمنزلة العبوديّة للسّوريّين من دون أي احترام لدينهم، ولتراثهم، ومنازلهم، وحرماتهم، ونتج من ذلك أن تعاظم إصرار السّوريّين على جلاء هذه القوّات عن سورية، ومن المحتمل أن حلّ جيش الشّرق الفرنسيّ كان بسبب السّمعة السّيّئة الّتي أظهرها في مهامه العسكريّة كبيرة كانت، أم صغيرة، وإلى الإجرام، والوحشيّة صفةً بارزة رافقته منذ داس تراب سورية.

ثانيًا: الحروب والتّدخّلات الّتي خاضها جيش الشّرق ضدّ الثّورات والحركات المدنيّة المحلّيّة، وعلاقته بالقوى العسكريّة والوطنيّة السّوريّة

١. الحروب في الشّمال والسّاحل السّوريّ

منذ أن وطأت أقدام المحتل الفرنسيّ في السّاحل السّوري مع نهاية الحرب العالمية الأولى بدأ الشّعب السّوريّ في مقاومته، وبسبب طول المدّة، وكثرة المعارك الّتي خاضها السّوريّون ضدّ جيش الشّرق الفرنسيّ، وعناصره يصعب في هذه الدّراسة إحصاؤها، لذلك آثرنا اختيار أبرز المواجهات، وأكثرها أثرًا على الصّعيد العسكريّ، والسّياسيّ.

قام الشّيخ صالح العليّ في السّاحل السّوري بالثّورة العارمة على الفرنسيّين أواخر عام ١٩١٨م، وحاول منع وصولهم إلى الدّاخل السّوري عام ١٩١٩م[١]، ومن اللّافت في معارك ثورة الشّيخ العلي هو استخدام جيش الشّرق لكلّ المعدّات الحربيّة، وصنوف الأسلحة من طائرات، ودبّابات، ومصفّحات، ومدافع، وكذلك قوّات الأسطول البحريّ الفرنسيّ المرابض قبالة الشّواطئ السّوريّة[٢]، إذ استمرّت المعارك حتّى عام ١٩٢٢م[٣] أي قرابة ثلاث سنوات ونصف خسر خلالها الفرنسيّون أعدادًا كبيرة من القتلى بلغت في

١. تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، م.س، ص٣١.

٢. علي، صلاح الدين منلا، سورية (١٩١٨-١٩٣٩م) دراسة منهجية لقضايا سياسية واقتصادية - اجتماعية، ص٧٣.

٣. تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، م.س، ص١٣-١٨.

بعض المعارك الكبرى المئات[١]، وشبّه الفرنسيّون معاركهم مع الثّوّار في السّاحل السّوري بالمعارك، والحروب الكبرى لما تركته من خسائر فادحة في صفوفهم[٢].

أمّا ثورة إبراهيم هنانو في الشّمال السّوري الّتي بدأت عام ١٩٢٠م فقد كتب عنها الفرنسيّون بأنّها من أخطر الثّورات الّتي أفقدت الفرنسيّين فخرهم، ومكتسباتهم الماديّة، وأجبرتهم على ترك كيليكيا الّتي وصفوها بالثّدي الّذي يغذّي الموارد الفرنسيّة، وذلك لحشد القوّات للبقاء في سورية[٣]، فقد كانت القوّات الفرنسيّة تحاول التّوسّع في الشّمال السّوريّ، ورفعت أعداد جندها إلى ٧٥ ألف، وكلّ ذلك لقمع ثورة هنانو، والسّيطرة على سورية بالقوّة، وبالوقت ذاته كان هناك سبع فرق عسكريّة تقاتل صالح العلي في جبال السّاحل السّوري عام ١٩٢١م، ووفقًا للإحصاءات الفرنسيّة فقد قارب عدد قتلاهم عام ١٩٢٠ ثلاثة آلاف قتيل، وفي العام التّالي قرابة ألفين قتيل، وعام ١٩٢٢م كان العدد ٦٣٦ [٤].

أمّا في حماة، وبالتّنسيق مع سلطان باشا الأطرش، أعلن القاوقجي ثورته[٥] وذلك في ٤ تشرين الأوّل ١٩٢٥م[٦]، وسيطر الثّوّار على المخافر الفرنسيّة جميعها في المدينة، وهاجم الثّوّار بقوّة السّراي، واقتحموا البهو الرّئيس، وحرّروا السّجناء، وسيطروا على كثير من السّلاح، ثمّ أشعلوه[٧]، وشكّلت ثورة فوزي القاوقجي أهمّيّة كبرى في وقف زحف جيش فرنسا المكوّن من ٣٠ ألف عنصر في جبل حوران، إذ خاف الفرنسيّون من تمكّن الثّوّار في حماة، وانتقال الثّورة إلى بقيّة المدن السّوريّة[٨]، ولكن الثّورة فيها لم تستمرّ

١. يونس، عبد اللطيف، تاريخ الثورة العلوية وقائدها الشيخ صالح العلي، ص٩٦-٩٧.
٢. معارك الحرية في سورية، م.س، ص٤٩.
٣. م.ن، ص٨٢.
٤. الثورة العربية في الشمال السوري - ثورة إبراهيم هنانو، م.س، ص٢٢.
٥. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٥٣.
٦. م.ن، ص٢٦٢.
٧. قاسمية، خيرية، مذكرات فوزي القاوقجي، ص١١٢.
٨. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٧١.

طويلاً بسبب الضّغط العسكريّ الفرنسيّ الكبير، ولأهمّيّتها الاستراتيجيّة، وبعد انتكاسة الثّورة في حماة فرض الفرنسيّون على أهلها ٥٠٠٠ ليرة ذهبيّة، وعددًا كبيرًا من البنادق الحربيّة، وعاملوهم بمنتهى القسوة، واتهموا كثيراً من أهلها بدعم الثّورة، بعد أن قصفوا المدينة بالطّيران، وتهدّمت بعض البيوت فوق رؤوس ساكنيها[١].

ولا بدّ من ذكر الثّورة الشّعبيّة الّتي حدثت في حمص عام ١٩٤٥م رفضًا لاستمرار الاحتلال الفرنسيّ، ورغبة في الحرّيّة، وقد تكبّد المحتلّ الفرنسيّ كثيراً من الخسائر[٢].

نجد من خلال النّبذة عن الثّورة في الشّمال أنّها بدأت منذ بدأ الاحتلال الفرنسي في سورية، وسبقت دخول دمشق بعامين تقريبًا، وكانت دليل على الرّوح الوطنيّة السّوريّة، ولا يخفى على أحد الموالاة، والتّفاهم بين الحكومة العربيّة في دمشق، وبين البريطانيّين، والفرنسيّين، وعلى الرّغم من ذلك جابه السّوريون الاحتلال بكلّ الوسائل الممكنة، واتّسعت من السّاحل إلى الشّمال، على الرّغم أنّه لم يكن هناك تنسيق مسبق بين الطّرفين إلاّ أنّهما يعطيان فكرة الرّفض، ومقاومة المحتل، وطلب الحرّيّة، والاستقلال.

٢. الحروب في الجنوب السّوري

دخل الفرنسيّون بجيشهم عنوة إلى سورية متذرّعين بتأخّر الرّدّ على شروط غورو، فجابههم السّوريّون في معركة ميسلون بقيادة وزير الحربيّة يوسف العظمة في ٢٤ تموز ١٩٢٠م، وعلى الرّغم أنّ المعركة كانت وسط نقص شديد في الإمكانيّات العسكريّة، ولم يكن هناك جيش سوريّ منظّم، ومدرّب ليواجه آلة القتل الفرنسيّة المتمرّسة في المعارك، إلاّ أنّ المعركة كانت رمزاً للوطنيّة السّوريّة الّتي تحدّت المحتلّ من اللّحظة الأولى الّتي داس فيها تراب سورية[٣]، إذ لم يدخل دمشق إلاّ على جثث الشّهداء السّوريّين، وعلى رأسهم يوسف العظمة[٤].

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٨٤.

٢. الهاشمي، محمّد عادل، مصطفى السباعي رائد أمة وقائد دعوة، ص٢٩.

٣. طقوش، محمّد سهيل، تاريخ بلاد الشام الحديث والمعاصر، ص٤٤-٤٥.

٤. المعلم، وليد، سورية (١٩١٦-١٩٤٦م) الطريق إلى الحرية، ص١٠٦.

عند احتلال فرنسا لسوريا، وحلّها للجيش السّوري، قام أهل السّهل الحوراني (درعا) بمظاهرات مسلّحة ما لبثت أن هاجمت القطار القادم من دمشق بالرّصاص، وقتلوا مسؤولي الحكومة السّوريّين المؤيّدين لفرنسا، وهم وزراء، ورئيس مجلس الوزراء إذ أرسلتهم لتهدئة النّاس، ممّا جعل فرنسا تجرّد حملة عسكريّة أخضعت حوران بالقوّة[١]، ومع رفض أهل حوران للاحتلال الفرنسيّ، وثورتهم ضدّ الجيش الفرنسيّ، قمع الجيش الفرنسيّ الثّورة بقصف القرى، وتدميرها، وركّز الفرنسيّون على قيمة ما سيدفعه السّوريّين تعويضًا عن القتلى، فكانت دية القتلى من الوزراء عشرة آلاف ليرة ذهبيّة لكلّ وزير، و٧ آلاف ليرة ذهبيّة للضّابط، و٥٠٠ ليرة ذهبيّة للجندي، وأضافوا لها ١٠٠ ألف ليرة غرامة حربيّة، عدا عن أحكام الإعدام بحث بحقّ المتهمين[٢].

وفي القنيطرة عمل أحمد مريود على وضع كمين للجنرال غورو، وكاد يؤدّي إلى مقتله خلال جولته في قضاء القنيطرة في حزيران ١٩٢١م، إذ قطع عليه مع مجموعة من الثّوّار طريق القنيطرة-دمشق بالحجارة، ولم تستطع القوّات الفرنسيّة اللّحاق بالثّوّار الخمسة المشاركين بالكمين الّذي أدّى إلى مقتل ضابط فرنسيّ، وجرح آخرين، ونجاة غورو، فانتقمت من أهالي القرى المجاورة، ودمّروا البيوت، وفرضوا الغرامات الكبيرة على السّكّان، واعتقلوا كثيراً من الأبرياء، وعملوا على تعذيب السّكّان، والأطفال، والنّساء ليعترفوا عن الثّوّار، وفي عام ١٩٢٢م لجأ أحد منفذّي محاولة قتل غورو، واسمه أدهم خنجر إلى سلطان الأطرش في جبل حوران، واعتقله الفرنسيّون من أمام منزل الأطرش في غيابه، وقد نقله الفرنسيّون إلى السّجن في السّويداء، وعند علم سلطان باشا بالأمر طالب به، ولكن الجنرال كاربيه (حاكم الجبل) رفض طلبه كون خنجر محكوم بالإعدام في المحاكم الفرنسيّة، ومع تعنّت فرنسا في الأمر فقد أدّى إلى مقتل طاقم سيارة من الفرنسيّين على يد الأطرش، وتلا ذلك عديد من الهجمات من سلطان، ورفاقه على

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٤٧-١٤٨.

٢. حسن، نجاة قصاب، جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥، المذكرات ٢، ص٦٣.

الفرنسيّين حتّى أعفت السّلطات عنه عام ١٩٢٣م[١]، وبذلك تكون الثّورة امتدّت تباعًا من دمشق إلى حوران ثمّ القنيطرة، وبعدها جبل حوران، الأمر الّذي يشكّل انتفاضة للجنوب السّوريّ بأكمله، ولكنّها لم تكن متزامنة، ولكنّ الموقف الوطنيّ من فرنسا في الجنوب السّوريّ كان يتعاظم، وكانت الثّورة ذات جذور اجتماعيّة، واقتصاديّة عميقة، ولم تنطلق إلّا بعد حال احتقان شعبيّ من سياسات فرنسا الاستبداديّة[٢]، فكانت شرارة الثّورة السّورية الكبرى في ٨ تموز ١٩٢٥م عندما اعتقلت فرنسا أبرز زعماء جبل حوران، وأعلن الثّوّار إسقاطهم طائرة فرنسيّة في امتان جنوبه، واعتقالهم للطّيّارين[٣]، وعلى إثر سياسة فرنسا الإقصائيّة، وعدم سماعها رغبات سكّان جبل العرب، ورأيهم في الإدارة، وتعنّتها في تعيين شخصيّات لا تقدّر القيم، والعادات، والرّغبات الوطنيّة، فقد بدأ سكان الجبل التّجهيز للثّورة، فما كان من فرنسا إلّا أن أمرت أحد القادة المحلّيّين وهو سلطان باشا الأطرش بالذّهاب إلى دمشق، ولكنّه رفض، فأرسلت كتيبة عسكريّة من مئات العناصر لإحضاره بالقوة، ولكن الدّروز وبعد أن حذروا الفرنسيّين من مغبّة إرسال القوّة العسكريّة، ولم يستمعوا، هاجموا الكتيبة في بلدة الكفر جنوب السّويداء، ولم ينجو منها سوى بعض الجند الفرنسي، وبدأت فرنسا ترسل التّعزيزات العسكريّة إلى الجبل، وقد تحصّنت القوّات في قلعة السّويداء، الّتي عمل الثّوّار على محاصرتها[٤]، وجعلت أنباء، وأصداء معركة الكفر، والانتصار الكبير الّذي حقّقه الثّوار على الفرنسيّين من أهل الجبل قالبًا واحدًا ضدّ ممارسات المحتلّ، وشارك كُثر كانوا من المتردّدين سابقًا، والحياديّين في دعم سلطان باشا الأطرش ليعلنها ثورة على الوجود الفرنسيّ في سورية[٥].

أصرّت فرنسا على الحشد العسكريّ لفكّ حصار قلعة السّويداء، ومعاقبة الثّوّار؛

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٤٠-١٤١، ١٤٣-١٤٥.

2. Provence, Michael, The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism, University of Texas Press, Austin, 2005, P.27.

٣. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٦٣.

٤. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص١١٥.

٥. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٦٦.

فحشدت ٩ آلاف جندي من جيشها من كلّ أنحاء سورية، وزجّت بهم من حوران إلى السّويداء، وفي ٣٠ تموز ١٩٢٥م تمركزت الحملة على الطّريق إلى السّويداء، فبدأ الثوار بمهاجمتها، وعددهم ٢٠٠ فارس، واستمرّ القتال طوال اللّيل، وأدّت إلى مقتل بعض الفرنسيّين، وفي ٢ آب سارت الحملة، وساندتها المدافع المدرّعات، والدّبّابات، والطّيران الحربي باتّجاه السّويداء، واستمرّت المعارك سجالاً بين الطّرفين، خسر فيها الثّوّار مئات المقاتلين، وبعد وصول الحملة إلى المزرعة بدأ الدّروز في مواجهة الفرنسيّين، وأوقعوا الحملة بين قتيل، وجريح انسحب الجنرال ميشو على إثر قوّة ضربات الثّوّار[١].

لم ينجُ من الجيش الفرنسيّ في معركة المزرعة سوى المئات، ومدرعة واحدة فقط هرب بها الجنرال ميشو فقد كان الثّوّار يطلقون الرّصاص بفوّهات المدرّعات، ويقتلون من فيها، أو يضرمون النّار حولها؛ فتحترق بمن فيها، وكانت المدرّعات لا تستطيع الفرار بسبب كثرة الجثث من جيش ميشو، والخيول، والمدرّعات، والمدافع المتفحّمة، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الدّروز أعملوا بالفرنسيّين ذبحًا بالسّلاح الأبيض خلال المعركة[٢]، ولم يجرؤ الفرنسيّون على قول الأرقام الحقيقيّة لخسائر جيشهم في حملة ميشو، وادَّعوا بأنّ برقيّة الجنرال ساراي لم تصل كاملة إلى فرنسا، ولم يعرفوا الخسائر حينها[٣].

تكبّد الفرنسيّون خسائر كبيرة في معارك جبل العرب، والجنوب السّوريّ بالعموم خلال عامين من الثّورة، ويصعب إحصاء معركها على امتداد الجنوب السّوريّ ما عدا ما ذكرناه في الشّمال، وشارك في الثّورة مقاتلون من شرق الأردن، ومنهم من استشهد في حروب جبل حوران[٤]، وكانت معركة المزرعة ذات أهمّيّة بالغة في استمرار الثّورة، وتوسّعها إذ تسارع التّواصل بين الجبل، وبقيّة المكوّنات السّوريّة للانتفاض ضدّ

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٦٨-١٧٦.

٢. م.ن، ص١٧٦-١٧٨.

٣.مذكرات فهمي المحايري عن الثورة السورية والأوضاع العلميّة والاجتماعيّة والسياسيّة السوريّة والعالم تحت الاحتلال الفرنسي، م.س، ص٨٥.

٤. عريضة، إسماعيل، مذكرات مجاهد أردني في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٦م)، ص٦٦-٦٩.

الفرنسيّين[١]، وبدأت الثّورة في دمشق، وخاض الثّوار السّوريون في الغوطة معارك شرسة ضد الجيش الفرنسيّ، وانتقلت المعارك إلى بعض الأحياء الدّمشقيّة، وما كان من فرنسا إلّا أن سلّطت نيران قوّاتها على السّكّان الآمنين في الأحياء الدّمشقيّة، وقتلت النّساء، والأطفال، والشّيوخ ، واستخدمت أسلوب الإرهاب، والتّدمير الشّامل[٢]، وبعد ثورة حماة في الشّمال، وإرسال ثوّار جبل حوران سراياهم إلى الغوطة، وقيام الثّورة فيها، وامتدادها إلى مناطق لبنان، أصبح الوضع العسكريّ لجيش الشّرق خطير، واحتاج قوّات داعمة من فرنسا للسّيطرة على الثّورة[٣]، في حين نظّم السّوريون في دمشق، ونواحيها أنفسهم في مجموعات، ووضعوا قوانين ثورتهم، وكيفيّة التّعامل فيما بينهم، وكذلك خطوات ثورتهم، والحفاظ على المناطق المُحرّرة[٤]، ولم تتوقّف الثّورة في دمشق إلّا بعد أن بدأ الفرنسيّون بقصف المدينة، وتدمير أحيائها، وفرض غرامات كبيرة على سكانها ١٠٠ ألف ليرة ذهبيّة، و٣ آلاف بندقيّة[٥]، وبالمقابل بلغ عدد قتلى الفرنسيّين عام ١٩٢٥م قرابة الـ٦٠٠٠ قتيل خلال ثلاثة أشهر فقط من ١٥ تموز، وحتّى ١٥ تشرين الأوّل[٦].

نجد ممّا سبق أنّ الحروب الّتي خاضها جيش الشّرق في الجنوب السّوري لم تكن متكافئة، وكان له الغلبة في العدد، والعُدّة، والوسائل الحربيّة، في حين كانت إرادة السّوريّين أقوى من جيش الشّرق، وعقيدتهم الوطنيّة هي ما حقّقت لهم النّصر الكبير على الفرنسيّين، وإنّ آلاف القتلى من جيش الشّرق الّتي سقطت خلال ثلاثة أشهر كان يصعب تعويضها، وقد أثّرت تلك الثّورة على الوجود الفرنسيّ في سورية، ومناطق أخرى، وغيّرت الرّأي السّائد عن القوّة العسكريّة الفرنسيّة الّتي كانت تصنف كأقوى القوى البرّيّة في العالم.

---

١. الشهبندر، الدكتور عبد الرحمن، القسم الخاص، ص٤.

٢. العطري، عبد الغني، اعترافات شامي عتيق - سيرة ذاتية وصور دمشقية، ص١٧.

٣. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٧٥.

٤. الخانجي، نشأت، ثوار صنعوا الاستقلال - صفحات مضيئة من تاريخ الثورة السورية - مذكرات وأوراق المجاهد جميل شاكر الخانجي (١٨٩٨-١٩٧٦م)، ص١٣٢-١٣٣.

٥. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٨٣.

٦. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٢٢.

٣. العلاقة بين جيش الشّرق وقوى الدّرك والشّرطة

كانت السّلطة في سورية لجيش الشّرق بالمطلق، فالمفوّضون السّاميّون برتبة جنرالات وهم قادة لذلك الجيش، ورؤساء الدّوائر ضبّاط عسكريّون، وكلّ الحكّام المعيّنون عسكريّون، وكأنّ من يحكم سوريا حزب عسكري واحد لا مفرّ من أساليبه العسكريّة في الحكم على الصّعد كافة[١]، وكان جيش الشّرق يشرف، ويدير وزارة الحربيّة، وله السّلطة الكاملة على الشّرطة العامّة، والأمن العام في سورية، ولبنان[٢]، في حين كانت قوّات الدّرك ترافق جيش الشّرق في معاركه، ومنها معارك الشّمال السّوريّ، وتخوض المعارك إلى جانبه، وفق مهامها المُحدّدة لها[٣]، وقد اعتمد جيش الشّرق على قوّات الدّرك لملاحقة الثّوار بشكلٍ فرديّ، ووقف تحرّكاتهم، واعتقالهم[٤].

عيّن الكولونيل كوس مديرًا لقوى الأمن العام من درك، وشرطة، وكذلك مديرًا لشؤون العشائر السّوريّة، والمتنقّلة فيها، ويتّبع للمفوّض السّامي[٥]، وتعاونت الشّرطة مع الجيش في منع المناطق السّوريّة غير المُسلحة من حيازة السّلاح فقد كان حمل مسدس غير مُرخّص يُعدُّ جريمة يحكم صاحبها بالسّجن لعامين، أمّا من يحوز بندقيّة غير فرنسيّة فقد كان الحكم خمس سنوات، أمّا من يحوز بندقيّة فرنسيّة، فيصل الحكم فيه إلى الإعدام[٦]، أمّا في مناطق الثّورات، والعصيان على فرنسا عمدت فرنسا إلى اختيار السّوريّين أصحاب السّوابق لقيادة الدّرك، ومنهم قائد درك حماة الّذي عُيّن في منصبه، وهو محكوم بالمؤبّد، فأخرجوه من السّجن، وعيّنوه في المنصب ليعمل على إيذاء المعتقلين الوطنيّين، والتّنكيل

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٥٩.

٢. العملة السورية، جريدة العاصمة، ص٥.

٣. الثورة العربية في الشمال السوري، م.س، ص٥٠.

٤. برقية من قائمقام القلمون إلى مقام محافظة دمشق، رقم ١٧٣، سورية وزارة الداخلية، ٤ نيسان ١٩٤٠، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، وثائق الدولة - الأحزاب السياسية، ٦٠/ ١٤٠؛ تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، م.س، ص١٢.

٥. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص١٨.

٦. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٨١-١٨٢.

بالأحرار[١]، ولم يتوانَ الجيش عن اعتقال من عيّنهم قادة للدّرك كما حصل عندما اعتقل قائد درك السّويداء مع زعماء الجبل، وأرسلهم إلى دير الزّور، ووضعهم في السّجن عام ١٩٢٥[٢].

لم تعتمد فرنسا على قوّات الشّرطة الّتي كان غالبيّتها من السّوريّين، فقد كان الجيش الفرنسيّ موجودًا في كلّ الأماكن المطلوب حماية مصالح فرنسا فيها، حتّى من المظاهرات الغاضبة[٣]، وفي نهاية مدّة الاحتلال الفرنسيّ لسورية مارست بريطانيا ضغوطًا على فرنسا من أجل تأهيل قوّات الدّرك السّوريّة لتحلّ محلّ الجيش الفرنسي[٤]، وقبيل الاستقلال كانت قوّات الدّرك، والشّرطة، والأمن العامّ تتبع لوزارة الدّاخليّة[٥].

نجد ممّا سبق أنّ فرنسا المُحتلّة سخّرت قوى الأمن، والشّرطة، والدّرك لصالح خدمة جيش الشّرق، إنّ تلك القوّات كانت محلّيّة فلم يكن هناك ثقة فرنسيّة فيها، بل كانت تحت المراقبة، وهي تراقب الوطنيّين، ومعرّضة للاعتقال، والسّجن في سبيل الولاء العسكري المطلق لفرنسا فقط.

٤. العلاقة بين جيش الشّرق والقوى العسكريّة المحلّيّة

كان الجيش العربي المتشكّل في إعقاب تحرير بلاد الشّام يتكوّن من أبناء القبائل الّذين عادوا إلى عشائرهم، وأعمالهم، وثلّة من المتطوّعين العرب ولا سيّما الضّبّاط السّابقون في الجيش العثماني، في حين لم تقم بريطانيا بتزويد ذلك الجيش سوى بالأسلحة الهزيلة الّتي لا تنفع مع القوّات الفرنسيّة، وذلك وفق اتّفاقها المسبق مع فرنسا بضرورة عدم تقوية

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص٢٧٤ - ٢٧٥.

٢. م.ن، ص١٦٣.

٣. إبراهيم باشا، جميل، مذكرات جميل إبراهيم باشا - نظال الأحرار في سبيل الاستقلال، ص٣٧.

4. Priestland and Seale, Records of Syria (1918 -1973), volume 6: (1943- 1945), P.246.

٥. كتاب من وزير الداخلية إلى محافظة دمشق، رقم ١٢١٩، سورية - وزارة الداخلية، ١٠ آذار ١٩٤٥، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، وثيقة ٨٠/ ٧٧، داخلية - مراسيم وقرارات مختلفة.

أي قوّة عسكريّة في سورية تستطيع مجابهة الاحتلال الفرنسيّ المزمع[١]، وعلى إثر إبلاغ الملك فيصل بوضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسيّ، بدأت مجموعات سورية مسلّحة تهاجم القوّات السّوريّة ما بين لبنان وسورية، في حين أعلن الملك فيصل فتح باب التّطوّع في الجيش السّوري[٢].

كان في جبل العرب قوى عسكريّة محلّيّة نتيجة الخلافات المتواصلة مع أهل السّهل الحوراني، وضمن الاتّفاق الفرنسيّ مع زعماء الجبل الحفاظ على السّلاح فيه، ولكن فرنسا بدأت تعامل أهل الجبل بذلّ، واحتقار، ولم تراعِ وجود تلك القوى العسكريّة المحلّيّة فيه، إذ أصبحت تطالب من السّكّان انتظار ضابط، أو صفّ ضابط فرنسيّ لساعات طويلة تحت الشّمس الحارقة ليستقبلوه، ويهتفوا له، وجعلت من سمعة جيش الشّرق مكانًا للحقد، والكراهيّة لدى السّوريّين، حتّى جعلت الفرنسيّون يتغنّون بأنّ أبناء الجبل راقصون، وليسوا ثوارًا، وأنّهم بعيدون من الثّورة، وتسهل قيادتهم[٣].

ولم تشهد سورية قتال وحدات عسكريّة منفصلة لصالح الفرنسيّين سوى عندما قاتلت وحدات عسكريّة سوريّة تتبع للحكومة السّوريّة إلى جانب جيش الشّرق على الأراضي السوريّة ضدّ بريطانيا، وعملت القوّات على إخلاء القرى القريبة من ساحات القتال[٤]، وكانت تلك المرّة الأولى الّتي تقاتل فيها تشكيلات عسكريّة سوريّة لصالح فرنسا ضدّ محتلّ آخر، وكانت معارك الحرب العالميّة الثّانية ضدّ الإنكليز مستمرّة ما بين جبل حوران، وبين جبل حرمون ممّا جعل الجيش الفرنسيّ التّابع لحكومة فيشي يقتحم المنطقة، ويضرب مراكز البريطانيّين عام ١٩٤١م[٥]، وبعد سيطرة حكومة ديغول، وقبيل استقلال سورية أعلنت حكومتها الحرب على دول المحور[٦]، وفي عام ١٩٤٥ كان

١. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي - الثورة السورية الكبرى، ص١٠٠-١٠١.
٢. نور الدين زين، زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، ص١٦٢.
٣. الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي، ص١٥٠.
٤. الجيوش الفرنسيّة تدافع بشجاعة، صحيفة الأخبار.
٥. هجوم معاكس بين حرمون والجبل الدرزي، صحيفة الأخبار.
٦. رسالة سورية، إعلان الحرب على المحور، صحيفة أخبار الحرب.

موضوع تسليم المهام العسكريّة للجيش السّوري، والقوّات العسكريّة السّوريّة هو أبرز نقاط المفاوضات مع الجانب الفرنسيّ[١]، في حين تتالت القرارات الصّادرة عن الحكومة السّوريّة، ومنها قرار من رئيس مجلس الوزراء السّوريّ في ١٥ أيلول ١٩٤٥م حدّد فيه قانونيّة استخدام قوى حرس البادية الهجّانة مثلما تستخدم قوى الدّرك، والشّرطة، وكلّها مرتبطة بالجيش من الوجهة العسكريّة من حيث التّسليح، والتّسليم، والتّفتيش فقط[٢].

في ١٧ آب ١٩٤٥م جرى استعراض لقوّات الجيش السّوري، وشارك في الاستعراض القوّات الخاصّة الّتي أعادتها فرنسا إلى سورية، وكذلك فرق الدّرك، والشّرطة، وعدد كبير من فرقة الكشّافة السّوريّة، وكان عددهم ٤٠٠٠ كشاف من مختلف المناطق السّوريّة، وكان ترتيب القوّات: الكشافة ثمّ فرقة الموسيقى التّابعة للدّرك، ومعها فرقة موسيقا تتبع الجيش، ثمّ قوّات الدّرك فالجيش ثمّ الشّرطة، وبعدهم طلاب الكلّيّة الحربيّة، والمعنيّين بالطّيران، ولمدفعيّة، والفرسان ثمّ الهجّانة، وبعدها القوّات الميكانيكيّة، والآليّة، بعدها جرى استعراض بطاريّات المدفعيّة بنوعيها الخفيفة، والثّقيلة، وأخيرًا المصفّحّات، والدّبابات[٣].

نجد ممّا سبق أنّ منطقة جبل حوران هي المنطقة الوحيدة في سورية الّتي حافظت على سلاحها، وشكّلت قوّة محلّيّة مسلّحة استطاعت القيام بثورة عارمة قبل أن يسحب سلاحها، ولم يتبقَّ بعد عام ١٩٢٧م أي مجموعات سوريّة مسلّحة ما خلال الشّرطة، والدّرك، والعناصر السّوريّة في جيش الشّرق، وكانوا يعملون خارجها، ثمّ شكّلوا نواة الجيش السّوري.

٥. قمع جيش الشّرق للتّحرّكات التّحرّريّة المدنيّة

لقد أفرزت الثّورات المتتابعة ضدّ الفرنسيّين على الأرض السّوريّة لمدّة تقارب

١. رسالة سورية، العلاقات السورية الفرنسيّة، صحيفة أخبار الحرب.

٢. تعليمات خاصة في استخدام قوى حرس البلدية والهجانة، وثائق الدولة، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، قوانين مجلس الوزراء، ق. و ٥/ ٧٧، ١٥ أيلول ١٩٤٥م.

٣. رسالة سورية، استعراض الجيش السوري، صحيفة أخبار الحرب.

عشر سنوات أن شعر السّوريّون بثقل الاحتلال، وإجرامه، وكره فرنسا للشّعب السّوري، وكان عديد من الوطنيّين يعملون في الشّأن السّياسيّ لدعم قيام الثّورة على كامل التّراب السّوري، في وقت كانت أعين عناصر الجيش الفرنسيّ تراقب كلّ الوطنيّين وتحرّكاتهم[١]، ومن الأمور المباشرة الّتي آذى بها الفرنسيّون من لم يقصفوهم بنيران أسلحتهم أنّهم أجبروا السّوريّين على دفع مرتّبات الجيش من الضّرائب المفروضة عليهم إذ بلغت عام ١٩٢٧م مبلغ ٩٥٠ ألف ليرة ذهبيّة سوريّة للجيش فقط[٢]، كذلك عمد الفرنسيّون إلى حساب خساراتهم من العناصر القتلى، والجرحى لجعل السّوريّين يدفعون التّعويض عن تلك الخسائر[٣]، كانت المهامّ الخاصّة بالجيش تدفع تكاليفها سورية وفقًا للقرارات الصّادرة عن اتّحاد الدّول السّوريّة عام ١٩٢٢م[٤]، أي أنّ السوريّين الّذين كان ذووهم إمّا شهداء، أو جرحى، أو معتقلين، أو منفيّين، عليهم أن يدفعوا لفرنسا للاستمرار في وحشيّتها ضدّهم، وقد أدّى الضّغط العسكريّ لجيش الشّرق على ثوار بلاد الشّام عسكريًّا خلال الثّورة السّورية الكبرى أن نشط ثلّة من السّوريّين في مجال الدّفاع عن الحقوق السّورية، وتبيان القضيّة السّوريّة لدى الدّول الأخرى، وفي المحافل الدّوليّة، وكانت تلك إحدى النّتائج المباشرة لعسكرة فرنسا وجودها في سورية ولبنان[٥]، ونتج من تلك العلاقة السّيّئة أنّ الجيش تدخل في كثير من الأحداث المدنيّة، ولا سيّما وسورية على أبواب الاستقلال فقد تدخّل الجيش لفضّ مظاهرة طلّابيّة ضدّ الاحتلال الفرنسيّ كانت نتيجة لممارسات الاحتلال القمعيّة، وحكمه العسكريّ على مجموعة من الوطنيّين ممّن نادوا باستقلال سوريّة، ووحدتها[٦]، وفي ٢٩ آيار من عام ١٩٤٥م، وفي موعد انعقاد جلسة

١. الحكيم، حسن، عبد الحمن الشهبندر حياته وجهاده، ص١٩٣-١٩٤.

٢. بيهم، محمّد جميل، الانتدابان في العراق وسورية انكلترا - فرنسا، ص١٠٨-١٠٩.

٣. القضية السورية - المفاوضات مع المسيو جوفنيل في باريس ومصر وبيروت، وثائق مهمة عن الحالة في سورية، ص١٤.

٤. سـوريا - قوانين - أنظمة إلخ، قرارات حكومة اتحاد الدول السـورية، دمشق، مطابع قوزما، (١٩٢٢-١٩٢٣م)، قرار عدد ٦١، صادر عن رئيس اتحاد الدول السورية، حلب، آذار ١٩٢٢، صورة ٤٢.

٥. قاسمية، خيرية، الرعيل العربي الأول - حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة، ص٣٧-٣٩.

٦. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص٨٦.

المجلس النّيابيّ كانت القوّات الفرنسيّة الّتي تمترست في شوارع دمشق قبل ثلاثة أيّام، تفتح النّيران من مختلف أسلحتها الخفيفة، والمتوسّطة، والثّقيلة باتّجاه المنازل الآمنة، واستمر ذلك لمدّة ثلاثة أيّام متواصلة، وكانت شرارة تلك الهمجيّة الفرنسيّة رفض مفرزة حرس المجلس النّيابيّ أداء التّحيّة للعلم الفرنسيّ وفق التّعليمات الوطنيّة لقائدها، ممّا أدى إلى اعتداء فرنسيّ على أفراد الحامية، وما تبعه من ردّ الحامية على الاعتداء، وانصبّت نيران الأحقاد الفرنسيّة على بناء المجلس النّيابيّ، وعلى منازل المدنيّين، وراح ضحيّة تلك المعركة المئات من المدنيّين العُزّل، وهُدّم قسم من المجلس النّيابيّ، وقتل الفرنسيّون ٣٠ دركيًّا، وشرطيًّا، ومثّلوا بجثثهم بعد قتلهم، وطال القصف فندقًا يقيم فيه رئيس الوزراء السّوري سعد الله الجابري، ما جعل رئيس سورية يتقدّم بطلب خطّي من بريطانيا التدخّل لوقف الاعتداء الفرنسيّ، ودخل الجيش البريطاني دمشق، وحذّر فرنسا من الاستمرار بالاعتداء، ووضع الجيش الفرنسي في ثكنات تحت حماية الجيش البريطاني، ونال الجنود الفرنسيّون الّذين مثلوا بجثث شهداء المجلس النّيابيّ عقابهم الّذي يستحقّونه على أيدي شبّان سوريّون[١]، وفي تلك الأثناء، وبعد ورود الأنباء للمحافظات السّوريّة بالاعتداء الفرنسيّ على دمشق، بدأ السّوريّون يهاجمون الفرنسيّين في كلّ مكان[٢]، وغادر السّوريّون المتطوّعون في جيش الشّرق الفرنسي ثكناتهم، والتحقوا بالوحدات العسكريّة تحت تصرّف الحكومة السّوريّة[٣]، في حين قاوم السّوريون دعم فرنسا لجيشها عام ١٩٤٥م إذ أرسلت طرادين عسكريّين إلى بيروت على متنهما ١٥٠٠ جندي فرنسيّ، إذ احتجّت الحكومة السّورية على ذلك، وطلبت فرنسا بإجلاء كلّ قوّاتها، وتسليم السّلطة العسكريّة، والمعدّات للجيش الوطنيّ السّوريّ، أي قابل السّوريون التّصعيد العسكريّ الفرنسيّ، وهم على أبواب الاستقلال بالدّبلوماسيّة، والحوار المدعوم بالتّحرّك الثّوريّ العفويّ المؤيّد للحكومة السّوريّة من الشّعب السّوريّ بمختلف أطيافه، وصولاً إلى

١. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص٣٤٣-٣٤٥.

٢. العجيلي، عبد السلام، ذكريات أيام السياسة، ج١، ص٢٠.

٣. سورية والانتداب الفرنسي، م.س، ص٣٤٦.

التّفاهم الكلّي المؤدّي إلى الاستقلال[١].

نستنتج ممّا سبق أنّ العلاقة بين الحركة التّحرّريّة السّوريّة المدنيّة، وبين جيش الشّرق كانت علاقة عكسيّة حقّق فيها الجيش بممارساته الوحشيّة دافع حبّ الاستقلال، والخلاص من السّياسة العسكريّة الفرنسيّة الّتي أرهقت السّوريّين، واستنزفت مواردهم، وقتلت أبناءهم، وهنا يتأكّد الدّور المهمّ الّذي أدّاه جيش الشّرق في أن تكون سورية دولة مستقلّة خارج السّلطة الفرنسيّة، أو حتّى الارتباط الفرنسيّ الّذي كان يحدث باللّغة، والثّقافة كالجزائر، والمغرب.

١. مجموعة مؤلفين، تاريخ أمة في حياة رجل، ص٤٢-٤٣.

الخاتمة

كان لجيش الشّرق الفرنسيّ دور كبير في تشكيل ردّة الفعل الوطنيّة، وسعي الشّعب السّوري إلى التّحرّر من غير قصد بالتّأكيد، فولاء ذلك الجيش لم يكن سوى للمال، وكان ينفّذ بكلّيّته السّياسة الفرنسيّة الفوقيّة بالتّعامل مع شعب حضاريّ يمتلك سمات التّطوّر، والانفتاح، والمقاومة، وعبرّ عن رفضه لأداة فرنسا العسكريّة لتحقيق الاحتلال، ومهما اختلفت الشّخصيّات الّتي قادت جيش الشّرق لتستطيع تحقيق التّقارب مع السّوريّين، فإنّها فشلت في ذاتها؛ لأنّها كلّها وجوه لعملة واحدة، وكلّها ذات طابع عسكريّ يتناغم وعجرفة الفرنسيّين، وقلة دبلوماسيّتهم، وبالتّالي كانت المهامّ المختلفة الّتي أوكلت للجيش الفرنسي تمثل دورًا إيجابيًّا في تصاعد اليقظة الثّوريّة السّوريّة في ضرورة الخلاص من الاحتلال، ولا سيّما عندما رأى السّوريّون الوطنيّون كيف استطاعت فرنسا تجنيد الأفارقة من عرب، وغير عرب لقمع الشّعب السّوري، واستطاعت تجنيد بعض السّوريّين من الأقلّيّات في جيشها لتفكّك سورية ليس فقط إلى دويلات، بل لخلق التّناحر في مختلف المناطق السّوريّة، وحوّلت جيش الشّرق برمّته إلى أداة للتّدخّل في الشّؤون المدنيّة السّوريّة، وقمع الشّعب السّوري في أبسط تحرّكاته ضدّ الاحتلال حتّى المدنيّة منها، وذلك يبرهن مدى الخوف الفرنسيّ من الشّعب السّوريّ، وعدم الثّقة بالسّوريّين العاملين بأجهزة الشّرطة، والدّرك.

لائحة المصادر والمراجع

الوثائق

١. برقية من قائمقام القلمون إلى مقام محافظة دمشق، رقم ١٧٣، سورية وزارة الداخلية، ٤ نيسان ١٩٤٠م، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، وثائق الدولة - الأحزاب السياسية، ٦٠/ ١٤٠، وثيقة غير منشورة.

٢. تعليمات خاصة في استخدام قوى حرس البلدية والهجانة، وثائق الدولة، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، قوانين مجلس الوزراء، ق. و /٥/ ٧٧، ١٥ أيلول ١٩٤٥م، وثيقة غير منشورة.

٣. سوريا - قوانين - أنظمة إلخ، قرارات حكومة اتحاد الدول السورية، دمشق، مطابع قوزما، (١٩٢٢-١٩٢٣م)، قرار عدد ٦١، صادر عن رئيس اتحاد الدول السورية، حلب، آذار ١٩٢٢م، وثيقة منشورة.

٤. الشهبندر، الدكتور عبد الرحمن، القسم الخاص، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، الوثيقة ١، ١٩٦٣م، وثيقة غير منشورة.

٥. كتاب من وزير الداخلية إلى محافظة دمشق، رقم ١٢١٩، سورية - وزارة الداخلية، ١٠ آذار ١٩٤٥م، مركز الوثائق التاريخيّة بدمشق، وثيقة ٨٠/ ٧٧، داخلية - مراسيم وقرارات مختلفة، وثيقة غير منشورة.

المصادر

١. إبراهيم باشا، جميل، مذكرات جميل إبراهيم باشا - نظال الأحرار في سبيل الاستقلال، مطبعة الضاد، سورية، ١٩٥٩م.

٢. أبو صالح، عبد القدوس، مذكرات الدكتور معروف الدواليبي، تحرير: محمد علي الهاشمي، مكتبة العبيكات، ط١، الرياض، ٢٠٠٥م.

٣. الأرمنازي، نجيب، محاضرات عن سوريا من الاحتلال وحتى الجلاء، معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٤م.

٤. بيهم، محمد جميل، الانتدابان في العراق وسورية انكلترا - فرنسا، مطبعة العرفان، صيدا - لبنان، ١٩٣١م.
٥. حسن، نجاة قصاب، جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥، المذكرات٢، مطبعة ألف باء - الأديب، ط١، دمشق، ١٩٩٤م.
٦. الحكيم، حسن، عبد الحمن الشهبندر حياته وجهاده، الدار المتحدة للنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.
٧. الحكيم، يوسف، سورية والانتداب الفرنسي، ذكريات١٧، دار النهار للنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
٨. الخانجي، نشأت، ثوار صنعوا الاستقلال - صفحات مضيئة من تاريخ الثورة السورية - مذكرات وأوراق المجاهد جميل شاكر الخانجي (١٨٩٨-١٩٧٦م)، دار الشرق، ط١، دمشق، ٢٠٠٨م.
٩. خباز، حنا، فرنسا وسوريا، مبادئ السياسة الفرنسيّة في الشرق، مطبعة علم الدين، مصر، ١٩٢٨م.
١٠. الريس، منير، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيّة في المشرق العربي - الثورة السورية الكبرى، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.
١١. العجيلي، عبد السلام، ذكريات أيام السياسة، ط١، سورية، ٢٠٠٢م.
١٢. عريضة، إسماعيل، مذكرات مجاهد أردني في الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٦، تحقيق: محمد علي الكردي، مركز الأردن الجديد للدراسات، عمان، ٢٠٠٦م.
١٣. العطري، عبد الغني، اعترافات شامي عتيق - سيرة ذاتية وصور دمشقية، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
١٤. فهد، أنور، أيام في الذاكرة، شركة إيبلا، المملكة المتحدة، ط١، ٢٠٠٠م.
١٥. قاسمية، خيرية، مذكرات فوزي القاوقجي، دار النمير، ط٢، دمشق، ١٩٩٥م.
١٦. القضية السورية - المفاوضات مع المسيو جوفنيل في باريس ومصر وبيروت، وثائق مهمة عن الحالة في سورية، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، المطبعة العربية، مصر، د. ت.

١٧. الكتاب الذهبي لجيوش الشرق (١٩١٨-١٩٣٦م)، تعريب: ادوار البستاني، المطبعة الكاثولوكية، بيروت، ١٩٣٩م.
١٨. مجموعة مؤلفين، تاريخ أمة في حياة رجل - ١٧ آب (١٩٤٣-١٩٤٧م) أربع سنوات من العهد الوطني، دار الأحد ومطبعة اليقظة العربية، بيروت ودمشق، ١٩٤٧م.
١٩. المحايري، فهمي، مذكرات فهمي المحايري عن الثورة السورية والأوضاع العلمية والاجتماعية والسياسية السورية والعالم تحت الاحتلال الفرنسي، تحقيق: تهاني حمزة، دمشق، ١٩٩٥م.
٢٠. مسعد، بولس، لبنان وسوريا قبل الانداب وبعده، المطبعة السورية، مصر الجديدة، ١٩٢٩م.

المراجع

١. اسماعيل، حكمت علي، نظام الانتداب الفرنسي على سورية (١٩٢٠-١٩٢٨م) بحث في تاريخ سورية الحديث من خلال الوثائق، دار طلاس، ط١، دمشق، ١٩٩٨م.
٢. آل جندي، أدهم، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد، دمشق، ١٩٦٠م.
٣. ربّاط، إدمون، تطور سوريا السياسي في ظل الانتداب، ترجمة: سليمان رياشي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠٢٠م.
٤. زرزور، فارس، معارك الحرية في سورية، دار الشرق، دمشق، ١٩٦٢م.
٥. سويد، ياسين، الوثائق المؤسسة للجيش اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي (١٩١٦-١٩٤٦م)، مؤسسة حكمت عبده قصير الثقافية، بيروت، ٢٠١٠م.
٦. طقوش، محمد سهيل، تاريخ بلاد الشام الحديث والمعاصر، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.
٧. علي، صلاح الدين منلا، سورية (١٩١٨-١٩٣٩م) دراسة منهجية لقضايا سياسية واقتصادية - اجتماعية، د.م، د.ت.

٨. العياشي، غالب، الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الافرنسي في سوريا، مطابع أشقر أخوان، بيروت، ١٩٥٥م.
٩. قاسمية، خيرية، الرعيل العربي الأول - حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط١، ١٩٩١م.
١٠. قرقوط، ذوقان، تطور الحركة الوطنيّة في سورية ١٩٢٠ - ١٩٣٩، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.
١١. قوصوه، فايز، الثورة العربية في الشمال السوري - ثورة إبراهيم هنانو، إدلب - سورية، ٢٠٠٨م.
١٢. لونغريغ، ستيفن ها مسلي، تاريخ سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقل، دار الحقيقة، بيروت، د. ت.
١٣. المعلم، وليد، سورية (١٩١٦-١٩٤٦م) الطريق إلى الحرية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٦.
١٤. نور الدين زين، زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار، بيروت، ١٩٧١م.
١٥. الهاشمي، محمد عادل، مصطفى السباعي رائد أمة وقائد دعوة، دار البشائر الإسلامية، ط١، بيروت، ٢٠٠٩م.
١٦. هوّاش، تكوّن جمهورية - سورية والانتداب، مكتبة السائح، طرابلس - لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
١٧. يونس، عبد اللطيف، تاريخ الثورة العلوية وقائدها الشيخ صالح العلي، مطابع أبي الفداء، حماة - سورية، د. ت.
١٨. يونس، عبد اللطيف، شكري القوتلي - تاريخ أمة في حياة رجل (١٩٠٨-١٩٥٨م)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

الصحف القديمة

١. الجيوش الفرنسيّة تدافع بشجاعة، صحيفة الأخبار، العدد ١٠٨١، السنة الرابعة

عشر، دمشق، ١٩ حزيران ١٩٤١م.
٢. رسالة سورية، استعراض الجيش السوري، صحيفة أخبار الحرب، العدد ٩٥، ١٩٤٥م.
٣. رسالة سورية، إعلان الحرب على المحور، صحيفة أخبار الحرب، العدد ٨٦، ١٩٤٥م.
٤. رسالة سورية، العلاقات السورية الفرنسيّة، صحيفة أخبار الحرب، العدد ٨٦، ١٩٤٥م.
٥. العملة السورية، جريدة العاصمة، العدد ١٥٠، السنة الثانية، دمشق، ٣٠ آب ١٩٢٠م.
٦. هجوم معاكس بين حرمون والجبل الدرزي، صحيفة الأخبار، العدد ١٠٨٠، السنة الرابعة عشر، دمشق، ١٨ حزيران ١٩٤١م.

المراجع الأجنبيّة

1. Priestland and Seale, Jane and Patrick, Records of Syria (1918- 1973), volume 6: (1937- 1939), Archive Editions, 2005.
2. Priestland and Seale, Jane and Patrick, Records of Syria (1918 -1973), volume 6: (1940- 1942), Archive Editions, 2005.
3. Priestland and Seale, Jane and Patrick, Records of Syria (1918- 1973), volume 6: (1943- 1945), Archive Editions, 2005.
4. Provence, Michael, The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism, University of Texas Press, Austin, 2005.